اللغة العربية أصل اللغات السامية
وهي اللغة (الأم)

د. فوزية علي عواد القضاة(*)

الملخص

إن البحث في نظرية نشوء اللغات السامية وأصول هذه اللغات من النظريات التي انقسم فيها علماء فقه اللغة إلى فرق وجماعات، تعددت آراؤها، واختلفت اتجاهاتها، ولكننا راينا من خلال البحث أن الصلة الوثيقة بين جميع اللغات السامية جعلت هذه اللغات جميعاً مشتقة من لغة واحدة (اللغة الأم)، نشأت في مكان واحد، ثم انتشرت شعوب الأسرة السامية في بقاع شتى، تاركة مهدها الأصلي، فظهر تأثير البيئات الجديدة في ألسنة المهاجرين، وظهرت لغات أو لهجات جديدة، لكنها ظلت قريبة الشبه باللغة (الأم)، وهذه اللغة (الأم) كما أثبتت المصادر العلمية والتاريخية والجغرافية هي اللغة العربية؛ لأن هذه المصادر أثبتت أن الموطن الأصلي للشعوب السامية المهاجرة هي الجزيرة العربية.

* جامعة البلقاء التطبيقية – كلية إربد الجامعية.

Abstract

Research in the theory of the emergence of Semitic languages and their origins is considered one of the theories in which language linguists were divided into teams and groups of different views and trends. However, through the research, we have seen that the close link between all Semitic languages has led to the derivation of such languages from one language (mother-tongue ") that originated in one place. Then the people of Semitic families (Semites) have spread in various parts of the world leaving their original place leading to the emergence of the impact of new environments in the tongues of migrants; new languages and dialects emerged, but they were still close to the (mother) language. This mother tongue, as proven in the scientific, historical and geographical sources, is the Arabic language, because these sources proved that the original home of migrant Semitic people is the Arabian Peninsula.

مقدمة:

هذا البحث هو محاولة لإثبات أن اللغة العربية هي أصل اللغات السامية، وقد اعتمدت فيه على الدلائل العلمية والتاريخية وخصائص اللغات السامية، وذكرت عدداً من الألفاظ التي تتشابه فيها اللغات السامية كالعبرية والآرامية والحبشية والآشورية البابلية مع العربية، فوجدت أن اللغة العربية قد جمعت من دون سائر أخواتها بين الظواهر اللغوية الدالة على قدمها، ومثلما استطاع البحث اللغوي والتاريخي أن يحدد لنا مواطن التشابه والاختلاف بين الأرومة السامية، استطاع أيضاً أن يثبت بالأدلة والبراهين موطن التفوق والتفرد الذي انمازت به العربية عن غيرها من اللغات السامية، كما أثبتت المصادر أن الجزيرة العربية هي الموطن الأصلي للشعوب السامية المهاجرة، وهذه المصادر نفسها أثبتت أن الجزيرة العربية لم يسكنها –منذ فجر التاريخ – شعب غير الشعب العربي. وتبعاً لذلك فإن اللغة العربية بحق هي أصل هذه اللغات السامية، وأم لها جميعاً.

هل العربية أصل اللغات السامية؟

للإجابة عن هذا السؤال لابد – بداية – أن نلقي الضوء على المقصود بالسامية؛ أطلق مصطلح اللغات السامية على الشعوب التي تنسب إلى السامية، وهم الشعوب الآرامية والفينيقية والعبرية والعربية واليمنية والبابلية الآشورية، وأول من أطلق هذا المصطلح هو المستشرق شلوتزير Scholözer، وذلك في سنة 1781م، اعتماداً على ما ورد في شجرة الأنساب وسفر التكوين 10 في العهد القديم، من أن تلك الأقوام تنحدر من سام (أحد أبناء نوح الثلاثة: سام، وحام، ويافث). وقد شاعت هذه التسمية حتى وقتنا الحاضر، واكتسب مصطلح الساميين قبيل الحرب العالمية الثانية معنى سياسيا جديدا؛ إذ أطلق على اليهود خاصة؛ وهو مما أوقع في غموض هذه التسمية. وقد استبدل بعض الباحثين بهذا المصطلح مصطلح العاربة، واللغات السامية اللغات العاربة[1]. وسماها بعضهم اللغات الجزرية، نسبة إلى جزيرة العرب[2].

وعلى أية حال فإن التسمية تتجه إلى أن الساميين، واللغات السامية تعود إلى أصل واحد، ثم حصلت هجرات فتشكلت شعوب ولغات أخذت تبتعد تدريجياً عن أصلها الأول.

وتنقسم اللغات السامية إلى شرقية وغربية؛ فالشرقية هي: اللغات البابلية الآشورية (الأكادية)، والغربية تنقسم إلى قسمين: شمالية وجنوبية، وفي الشمالية: الكنعانية والآرامية، والكنعانية تضم الأجريتية (14 ق.م) والكنعانية القديمة والمؤابية (900 ق.م)، والفينيقية (5 ق.م)، والعبرية[3]، وأما الآرامية فتشمل

مجموعة من اللهجات التي انتشرت في بلاد الشام وشمال العراق وجنوبه، وفي الأردن وشمال الحجاز وغربه[4]، والعربية الجنوبية تشمل المعينية والسبئية والحضرمية والقتبانية ومعها اللغات السامية في الحبشة، أما العربية الشمالية فتشمل العربية البائدة، وهي اللهجات الثمودية والصفوية واللحيانية، وأما العربية الباقية فهي التي وصلت إلينا[5].

واللغات السامية مجموعة من اللغات بينها علاقات قرابة وتتشابه في المزايا والخصائص؛ وهو مما دفع علماء اللغة إلى عدها مجموعة واحدة تختلف عن غيرها من المجموعات. وهذا يقود إلى الحديث عن اللغة الأم للغات السامية أو عن أصلها. ويحسن التمهيد لذلك بالحديث عن موطن اللغات الأصلية. ومن أجل التوصل إلى تعيين الموطن الأصلي، وتحديد خصائص تلك اللغة الأم للشعوب السامية، فقد كثرت الاجتهادات وتباينت وجهات النظر في سبيل التوصل إلى تصور مقبول لتلك اللغة الأولى في موطنها الأول الموغل في القدم، فوجدنا الدراسات قد اتخذت من الأسباب والتعليلات ما يساعدها على إبراز ما ذهبت إليه، وتنوعت وسائلها في ذلك من تاريخية وجغرافية وأنثروبولوجية، ولعل أقوى الآراء "هو ذلك الذي اعتمد على اللغات السامية وسيلة للتدليل على أن الشعوب الناطقة بهذه اللغات كانت شعبا واحدا يقطن موطنا واحدا، ذلك لما بين هذه اللغات من تشابه واضح، وتماثل بين في كثير من ألفاظها، وطرائق التعبير بها، وفي مبانيها ومعانيها، وفي مفرداتها وتراكيبها، ومن هنا أدرك علماء الساميات كذلك أهمية تناول هذه اللغات بالدرس المقارن لغة وأدبا"[6]. مما تقدم فإنه لابد من الإشارة إلى الموطن الأصلي للساميين؛ لأن هذه القضية غاية في الأهمية، وتسهم إسهاما فعالا في تحديد اللغة الأم للغات السامية.

إن مسألة البحث عن الموطن الأول للساميين الذي عاشوا فيه شعباً واحداً ولساناً واحداً من المسائل التي كثرت فيها الآراء وتباينت فيها الاحتمالات، وكل رأي يحاول الاستناد إلى ما يعززه، فهنالك من يرى أن مهد الساميين هو المكان الذي رست فيه سفينة نوح بعد الطوفان، ومصدر هذا الرأي دراسة المأثورات القصصية القديمة التي وردت في التوراة، وفي كثير من أساطير بابل وشومر التي تفيد بأن السفينة رست في مكان من المرتفعات التي ينبع منها دجلة والفرات في شمال العراق. وعلى ذلك يعتقد أصحاب هذا الرأي أن مرتفعات كردستان هي المقصودة، وهي من ثَمَّ موطن الساميين الأول[7]. ولكن هذا الرأي مردود بحجة أننا لو سلمنا به لكانت مرتفعات كردستان مهداً للبشرية جمعاء، وليس لأبناء سام فحسب؛ لأن السفينة لم يكن فيها سام بن نوح وحده، بل كان فيها الإنسان والحيوان والطير، وكل ما عمرت به اليابسة[8].

وهنالك افتراض آخر يجعل سهل العراق (ما بين النهرين) هو أول موطن للساميين، ومن أوائل القائلين بهذا الافتراض العالم الإيطالي جويدي؛ إذ "لاحظ أن كلمة نهر موجودة بلفظها تقريباً في جميع اللغات السامية، فى حين أن كلمة جبل تختلف اختلافا بينا من لغة سامية إلى أخرى، ولاحظ – كذلك– أن كثيراً من أسماء النباتات والحيوانات وأشكال الأرض في اللغات السامية تشبه ما يوجد من ذلك في البابلية الآشورية لا في العربية؛ وخرج بنتيجة مؤداها أن سهول العراق لابد أن تكون هي الموطن الأول للساميين"[9].

وبالرغم من أن حجة جويدي حجة لغوية؛ فإن هنالك ما يبطلها؛ إذ "يوجد نقش مشهور سجل عليه الملك سرجون الأول الأكادي (حوالي سنة 2600 ق.م) ما يفيد أنه هو وأسرته جاءوا إلى العراق من شرقي الجزيرة العربية؛ أي أن العراق ليس موطنه الأصلي، وسرجون هذا من أقدم الملوك الساميين في العراق، كما أن الوثائق السومرية تؤكد أن الشعب الأصلي للعراق لم يكن شعبا ساميا، كما أنه يختلف بوضوح عن الساميين في عاداته وتقاليده وزيه. وقد يكون شيوع كلمة نهر في اللغات السامية يرجع إلى أن الساميين عرفوا النهر قبل أن يعرفوا الجبل في بواكير حياتهم، قبل هجراتهم واختلاف لهجاتهم، كما أنه ليس من الضروري أن يكون النهر الذي عرفوه هو نهر دجلة"[10]. وممن عارض جويدي في رأيه السابق نولدكه؛ إذ يقول: "إن من العبث أن نعتمد في حقيقة كهذه على جملة كلمات ليس ما يثبت لنا أن جميع الساميين أخذوها من أهل العراق"[11]، ثم يسوق ألفاظاً أخرى لتأييد معارضته مثل: جبل وصبي وخيمة وشيخ وأسود ... فهذه كلمات ترتد إلى أقدم الأزمنة غير أن كل لغة سامية عبرت عن هذه المعاني بكلمات مختلفة[12].

ويرى بعض الباحثين أن الموطن الأصلي للساميين كان بلاد كنعان، فالساميون كانوا منتشرين في البلاد السورية القديمة في أزمنة سحيقة في القدم، وأن مدنيتهم في هذه البلاد لا تعرف نشأتها، ولا تعرف قبلها مدنية أخرى، في حين كانت بلاد العراق يسكنها من قبل الشعب السومري، وكانت فيها مدنية زاهرة قبل مدنيتهم[13].

وممن ذهب إلى أن موطن الساميين الأول كان في منطقة شمال سوريا المستشرق الأمريكي كلاي، وتبعه الفرنسي موريه وجورج كونتنو[14]، ويعتمد هذا الرأي على مقارنة فكرية في الأساطير والمأثورات الشعبية بين المناطق التي ازدهرت فيها، ويعزز أصحاب هذا الرأي ما ذهبوا إليه بأن أول أسرة بابلية في العراق جاءت من الغرب؛ أي من بلاد آمورو. وللتسليم بهذا الرأي لابد لنا أن نسلم بأن الساميين الأوائل خرجوا من شمال سورية إلى العراق والأردن وشبه الجزيرة العربية في رحلات شاقة فى الصحراء في تلك العصور القديمة، ولا يمكن في تلك العصور قطع هذه الصحاري إلا على ظهور الإبل، ولكن استعمال الإبل في الرحلة

آنذاك مستبعد؛ لأن استعمالها في تلك المنطقة لم يعرف إلا في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد أو بعد ذلك[15].

وهنالك من يرى أن أرمينية هي المهد الأول للساميين، وتقع قرب حدود كردستان. وفريق من هؤلاء يرى أن أرمينية هي المهد الأول للشعوب السامية والآرية جميعا[16]. ومنهم من يرى أن المهد الأول للساميين كان شمال أفريقيا، ومنها نزحوا إلى آسيا عن طريق برزخ السويس. وبعضهم يرى أن الحبشة هي مهد الساميين الأول، ومنها نزحوا إلى القسم الجنوبي في بلاد العرب عن طريق باب المندب، ومن ثم انتشروا في مختلف أنحاء الجزيرة العربية[17].

وهنالك من يرجح أن المهد الأول للساميين كان القسم الغربي من شبه الجزيرة العربية (بلاد الحجاز ونجد واليمن وما إلى ذلك)، ومن أصحاب هذا الرأي: رينان الفرنسي وبركلمان الألماني[18]، ومنهم أيضا إيراهارد شرادر ودي جويه وسايس وجريم وكوك وديتلف نيلس ورايت وسميث وكونتنو وكيتاني وفليش وديسو ومونتجمري وماكدونالد وفينكر وغيرهم[19]. وقد عزز أصحاب هذا الرأي ما ذهبوا إليه بأدلة مختلفة لغوية وتاريخية وجغرافية وأسطورية، حتى استوت لديهم نظرية متكاملة لا تعسف في فرضياتها ولا تكلف في حيثياتها.

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن جزيرة العرب منذ فجر التاريخ لم يسكنها شعب غير الشعب العربي، وذلك ما لم يتوافر في مكان آخر من الأماكن التي افترضتها الآراء والنظريات الأخرى، ولذا كان إجماع علماء ثقات على أن اللغة العربية الفصحى هي بلا منازع أقدم صورة حية من اللغة السامية الأم، وأقرب هذه الصور إلى تلك اللغة التي تفرعت منها بقية اللغات السامية[20]. وممن يؤكد أن جزيرة العرب هي موطن الساميين بروكلمان؛ إذ يرى "أن في السهل الساحلي الخصب من جنوب شبه الجزيرة العربية، وفي السفوح الزراعية الكثيرة المياه، والمتدرجة وراء ذلك السهل في تصاعد يبلغ مرتفعات شاهقة، اختلط الجنس الشرقي الذي يكون نواة الأصل السامي بعناصر من أجناس البحر الأبيض المتوسط، وعناصر زنجية في بعض الجوانب، لما يبدو من امتداد العلاقات بالساحل الإفريقي المقابل إلى زمن ما قبل التاريخ"[21]، ويرى ولفنسون "أن أكثر الحركات والهجرات عند أغلب الأمم السامية إلى البلاد المعمورة الدانية والقاصية في عصور مختلفة، وأقدم هجرة سامية اتجهت نحو بابل كانت من ناحية الجزيرة، وقد أسست تلك الجموع مُلكا عظيما في بقعة الفرات، وكذلك هاجرت البطون الكنعانية والآرامية تاركة بلاد العرب، وكان لهجرتها أثر عظيم في حياة العالم القديم، ولم تقف هذه الهجرات العربية عند العراق وسورية وفلسطين، بل جاوزتها إلى مصر أيضا، فقد توغلت قبائل سامية جاءت من ناحية الجزيرة إلى بلاد النيل،

وبسطت سلطانها على مصر، وكونت في تاريخها الأسر الحاكمة المعروفة بالهكسوس، وكذلك كانت الهجرة العربية بعد ظهور الإسلام إلى جميع بلدان العالم القديم آخر موجة سامية عظيمة غمرت وجه الأرض وهزت العالم بأسره"[22].

وبعد، فإن ما ذهب إليه كل من بروكلمان وولفنسون وغيرهما من العلماء يدل دلالة واضحة على أن الجزيرة العربية هي مهد الشعوب السامية، ولأنها لم يسكنها منذ فجر التاريخ شعب غير الشعب العربي، فإن في ذلك إشارة إلى أن العربية هي اللغة الأم للغات السامية جميعا، وهذا ما ذهب إليه فيلبي؛ إذ يقول: "... كان هؤلاء الساميون بالتأكيد عربا يتكلمون العربية، وقد هاجروا من أوطانهم الأصلية في جنوب الجزيرة العربية، بعد اضطرارهم إلى ترك منازلهم القديمة، بسبب الجفاف الذي ظهرت بوادره بعد العصر الحجري القديم، والتوجه نحو الشمال إلى أطراف الهلال الخصيب في موجات متعاقبة. وقد استمرت هذه الهجرات عبر آلاف السنين تارة بطيئة، وتارة أخرى سريعة، حتى تمكنت إحدى الزمر السامية أن تثبت أقدامها في السهل الخصيب من أواسط ما بين النهرين"[23]. إذن فإن الحديث عن موطن الساميين الأول، إنما هو الحديث عن فترة موغلة في القدم، قد تكون قبل التاريخ، أو تكون كما افترض بعض المؤرخين والباحثين أنها ترجع إلى آلاف السنين قبل الميلاد[24].

وما دمنا ارتضينا مع إجماع كثير من العلماء فرضية أن الجزيرة العربية هي الموطن الأول للساميين، قبل تفرقهم وانتشارهم في هجرات مختلفة؛ فإن هجرة الساميين من موطنهم الأول لم تحدث في وقت واحد، ولم تكن إلى وجهة واحدة، بل تمت على مراحل زمنية طويلة، وإلى جهات مختلفة. ولقد "سلك فريق طريق الساحل الغربي من الجزيرة العربية نحو الشمال؛ حيث يتفرع عند شبه جزيرة سيناء إلى وادي النيل الخصيب، حوالي 3500 قبل الميلاد، واستقر هؤلاء بمصر، واختلطوا بسكانها الحاميين؛ حيث أفرز لنا هذا الاختلاط القدماء المصريون الذين شيدوا أسس حضارة شامخة راسخة، وفي غضون تلك الفترة، اتجهت إلى الشمال موجة أخرى من المهاجرين نحو بلاد الرافدين، حيث كان السومريون. وتعلم الساميون المهاجرون من السومريين فن الكتابة، فأبرز لنا اختلاط الساميين المهاجرين بالسومريين الأصليين الشعب البابلي، ثم حدثت هجرة ثالثة حوالي منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد، خرج فيها الأموريون من موطنهم الأصلي إلى منطقة الهلال الخصيب، وكان الكنعانيون من عناصر تلك الهجرة، ونزلوا غربي الشام وفلسطين بعد سنة 2500 قبل الميلاد، وكان من بين عناصر تلك الهجرة أيضاً الساحليون الذين سماهم الأغارقة بالفينيقيين. وفيما بين سنتي 1500 و1200 ق.م تسرب العبريون إلى جنوب الشام (فلسطين)، وكذلك تسرب

الآراميون (السريان) إلى شمال سهل البقاع الذي يقع بين جبلي لبنان الشرقي والغربي، ثم حل منتصف القرن الأول قبل الميلاد، فنزل الأنباط المنطقة الواقعة شمال شرق شبه جزيرة سيناء. وبحلول القرن السابع الميلادي تنطلق آخر موجة من موجات الهجرة السامية من جزيرة العرب إلى معظم بقاع العالم تحت راية الإسلام، فشملت منطقة الهلال الخصيب، كلها ثم مصر وإفريقية الشمالية وفارس وإسبانيا، وأجزاء من آسيا الوسطى"[25].

وإذا افترضنا صحة الرأي السابق (أن الجزيرة العربية هي المهد الأول للشعوب السامية، ونزوح بعض الجموع، وذلك بسبب التحول المناخي للجزيرة، والتصحر الطارئ عليها)؛ فإنه ينبني على هذا الافتراض افتراض آخر، ألا وهو أن الجموع المهاجرة لم تكن كل شعوب المنطقة الذين كانوا يسكنون فيها، وأن الشعوب التي نزحت بلغاتها، ما فتئت تبتعد عن لغتها الأصلية، حتى صارت شعوبا ذات لغات متباينة، يربطها بالأصل (اللغة الأم) روابط ومفردات، ولكنها ليست واحدة، ولكنها لغات جديدة لها أصول ثابتة، ولها فروع متجددة؛ فهي لغات ذات قرابة في الأصل، وهي لغات مختلفة لما جد عليها. أما الشعب السامي الذي لم يهاجر، وآثر البقاء في جزيرته، فقد احتفظوا بلغتهم السامية الأولى، وهذه اللغة هي اللغة العربية التي يفترض البحث أنها اللغة الأم أو أصل اللغات السامية.

وبهذا الإطار يرى ولفنسون "أن اللغة العربية تشتمل على عناصر لغوية قديمة، بسبب وجودها في مناطق منعزلة عن العالم، بعيدة عما يتوارد عليه من تقلبات وتغيرات يكثر حدوثها، وتختلف نتائجها اختلافاً مستمراً في البلاد العمرانية"[26].

وبعد هل نستطيع أن نعد اللغة السامية الأم أقدم لغة سامية؟

بالرغم من توجه بعض المستشرقين المحدثين؛ فإنه من العبث أن يبحث المرء في لغات الساميين عن أقربها إلى السامية الأصلية؛ لأنه إذا كان العلم قد اهتدى إلى أن اللغة السنسكريتية القديمة لا تعد أقرب لهجة قديمة إلى الآرية الأصلية، فكيف يمكن أن نحكم بأن لغة سامية أقرب من غيرها إلى السامية الأصلية، في حين نعلم أنه قد طرأ على اللغات السامية من التغييرات والتقلبات ما لا يعد ولا يحصى"[27].

وبالرغم من هذا التوجه؛ فإنه لابد لنا من أن نعرض للآراء في هذه المسألة. والرأي الأول يفترض أن اللغة العبرية أقدم لغات العالم، وهذا هو رأي أحبار اليهود، ووصل إلى بعض العرب في القرون الوسطى[28].

والحقيقة "أن العبرية، بوصفها لغة مستقلة، هي أحدث الساميات استقلالاً، وذلك أنها قبل أن تصبح لغة مستقلة، كانت إحدى لهجات الكنعانية التي هي لغة عربية

في الأصل والمنشأ"[29]، وإبراهيم – عليه السلام – كان آراميا، والآراميون عرب صليبة "آراميا تائها كان أبي، فانحدر إلى مصر وتغرب هناك في نفر قليل"[30]، وإبراهيم – عليه السلام – كان يتنقل طلبا للكلأ والماء، وكان يسمى عربيا أو عبريا. والكلمتان بمعنى واحد، وكلمة عبري متفرعة عن أصل عربي، وقد حصل في الثانية قلب مكاني في بعض اللهجات، فبعض أهل المدن كان يسمى العربي عربيا، وبعضهم كان يسميه عبريا، والقلب المكاني ظاهرة معروفة في اللغة العربية، كما هو في: جذب وجبذ، وصاعقة وصاقعة، ويئس وأيس، وأوباش وأوشاب، وباء وآب.

يقول ولفنسون: "إن كلمة عرب كانت مستعملة في اللغة العبرية القديمة لتدل على أهل العربة (الصحراء)"[31]، ويقول: "إن كلمة عبري تؤدي المعنى الذي تؤديه كلمة عربي نفسها؛ أي أن العبريين هم قبائل رحل كانت تنتقل بخيامها وإبلها من مكان إلى آخر"[32]، ويضيف: "نحن نعتقد أن كلمة عبري وعربي مشتقتان من ثلاثي واحد؛ هو عبر"[33]. والكلام السابق فيه صواب وفيه خطأ، فأما الصواب فهو أنه عد الكلمتين بمعنى واحد وأصلهما واحد، وأما الخطأ فالجذر الذي اشتقتا منه هو عرب، وليس عبر، والتوافق النطقي بين عربة وعرب أكبر منه بين عربة وعبر، وقوله: "إن كلمة عرب كانت مستعملة في اللغة العبرية القديمة، وليس هناك وجود لما سماه اللغة العبرية القديمة"[34]، فاللغة العبرية لغة مستقلة، بدأت تتشكل في القرن السادس قبل الميلاد؛ أي بعد عهد موسى عليه السلام بثمانية قرون، وبعد عصر إبراهيم – عليه السلام – بألف وثلاثمائة سنة، وقد اختلط الآراميون بالكنعانيين، وظهر أثر هذا الاختلاط في تدوين التوراة الحالية التي كتبت في ذلك القرن، وتأثرت العبرية كثيراً باللغات التي كانت مستعملة في العراق في السبي الأول والثاني[36]؛ وذلك للأسباب الآتية:

1- أن أحرف الحلق أكثر ظهوراً في اللغات السامية من اللغات الأخرى، وهى: الألف اليابسة والهاء والخاء والغين والحاء والعين. ولكننا نجد أن هذه الأصوات قد تمثلت في العربية أكثر منها في العبرية التى تخلو من الحاء والعين.

2- الحروف الصوامت العبرية أقل من الصوامت العربية، فليس فيها أصوات الضاد والطاء، والذال.

3- جمع التكسير واسع الاستعمال في العربية، فى حين تميل العبرية إلى جمع السلامة، فالياء والميم فيها وحدة صرفية لاحقة تفيد الدلالة على أكثر من واحد من الأسماء.

4- المعجم العربي أغزر مادة من المعجم العبري، فالمادة اللغوية في اللغة العربية مادة هائلة على امتداد القرون، واختلاف الأمكنة، فى حين تسعى العبرية لإثراء معجمها عن طريق العربية واللغات الأخرى.

5- احتفاظ اللغة العربية بظاهرة الإعراب؛ إذ تتغير أواخر الكلمات فيها باختلاف وظائفها في الجمل، أما العبرية فموقوفة، وقد يظهر الإعراب فيها في عدد قليل من الكلمات.

يتضح مما سبق أن العبرية عندما انتقلت من مهدها الأول فقدت بعض خصائصها (خصائص السامية الأم التي هي في نظرنا اللغة العربية)، وأنها تأثرت بنطق الغربيين لبعض الأصوات، وأما العربية فقد بقيت في مكانها محافظة على كيانها وعلى خصائصها الأولى، ولم تخضع للغات أخرى، بل على العكس التهمت لغات كثيرة، وبقيت خالدة على مر الزمن.

أما الرأي الثاني ففيه أن اللغة الآشورية البابلية هي أقدم اللغات السامية[37]. ويعتمد أصحاب هذا الرأي على أن اللغة الأقدم تدويناً هي الآكدية؛ إذ تؤرخ الكتابات الآكدية القديمة بحوالي منتصف الألف الثالث ق.م، ويعتمدون كذلك على بعض خصائص هذه اللغة القديمة[38]. غير أن اللغة الآكدية قد اختلطت باللغة السومرية التي لا نعلم شيئاً عن خصائصها الصوتية والصرفية والنحوية، وتختلف عن الآكدية في أسلوبها ومباني جملها، وقد تركت أثراً قوياً في الآكدية رسما وأصواتا ومبنى ومعنى؛ لذا "فإننا لا نرى أنها تمثل الصورة الأصلية للغات العاربة الأولى، تلك الصورة التي يجب أن تكون نقية خالية من أية شوائب"[39]. ويمكن المقارنة بين اللغتين، من حيث امتلاكها خصائص اللغة السامية الأم على النحو الآتى[40]:

1- إن العربية أغنى من الآكدية أصواتا؛ إذ يبلغ عدد الحروف العربية الجنوبية تسعة وعشرين حرفاً، فى حين فقدت الآكدية حروف الحلق، ما عدا الهمزة والخاء، كما فقدت الثاء والذال والضاد والظاء، وأحيانا الواو والياء الصحيحتين في الحشو والآخر، وفي مراحل متأخرة حتى في صور الكلمة.

2- تدغم الآكدية النون في الثاء في ضمائر الرفع المنفصلة مع المخاطب، وفي بعض أوزان الأفعال، لاسيما وزن انفعل ومزيداته، وهذه كلها من مظاهر الاتجاه نحو العامية، كما في المعجمات العربية المعاصرة.

3- العربية أغنى في أوزان الأسماء ومشتقاتها، وأوزان الأفعال ومشتقاتها، وأوزان الأفعال ومشتقاتها من الآكدية.

4- العربية أكثر تنوعاً في ضروب استعمال الصفات، والظروف، والحال، والتمييز، والبدل، والاستثناء، والمفعول المطلق، والمفعول معه، والمفعول لأجله، والنفي، وكثير من الأدوات، والإضافة وأنواعها، والنداء، والمدح، والذم.

5- العربية أغنى في استعمال المثنى وفيها جموع التكسير، أما الآكدية فاستعمال المثنى يكاد يكون مقصوراً على أعضاء الجسم المزدوجة، وليس فيها جمع تكسير.

6- العربية أكثر ثراءً في الحالات الإعرابية وعلاماتها؛ إذ فقدت الآكدية: الحركة في المضاف الذي يرد ساكنا في معظم الأحيان، أما العربية فهي اللغة الوحيدة التي حافظت على ظاهرة الإعراب كاملة، كما أن العربية أكثر سعة في استعمال الممنوع من الصرف.

7- العربية أكثر ثراء في المفردات والتعابير والصور البلاغية.

لهذه الأسباب مجتمعة فالعربية هي أقدم في خصائصها الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية من الآكدية، برغم أنها أحدث تدوينا، والتدوين وحده لا يصح أن يكون أساسا لتعرف قدم هذه اللغة أو تلك، وخصائص اللغة هي التي تحكم على أقدميتها أو حداثتها[41].

أما الرأي الثالث ففيه أن العربية هي أقدم اللغات السامية[42]. وذهب إلى هذا الرأي أولسهوزن الذي عد العربية أقرب لغات الساميين إلى اللغة السامية[43]. أما المستشرق دي جوج فيرى أن الجو البديع لبلاد العرب الداخلية، والجمال الجسمي للعرب يدلان على حقيقة لا نزاع فيها، هي أن اللغة العربية تقترب كثيرا من اللغة السامية الأولى أكثر من اللغات السامية الأخرى[44]. وهذا استدلال برغم صدق توجهه فأراه ضعيفا؛ لأنه لا يحكم على قدم لغة من خلال أجسام أصحابها.

ويمكننا الاستدلال لهذا الرأي من عدة وجوه:

- أن المهد الأول للساميين ولغاتهم هي الجزيرة العربية، وهو الرأي الأكثر صوابا – فيما أرى – وذلك لأسباب مناخية اقتضت أن يهاجر كثير من العرب بلهجاتهم، ليكونوا فيما بعد شعوبا ولغات أخذت تبتعد عن أصلها وتتباين، وأما الباقون – الجزيرة العربية لم تخل يوما من الناس بدليل الموجودين فيها من قديم حتى الوقت الراهن – فقد حافظوا على خصائصهم المختلفة من عادات وتقاليد، وحافظوا أيضا على لغتهم، ولم يطرأ عليها تغيير أو تبديل، وهذا دليل على أن اللغة العربية هي اللغة الأم، وهي الأصل، وما تبقى فهو الفرع.

- أن محافظة اللغة العربية على خصائص اللغة السامية الأم دليل على أنها هي اللغة الأم وليست لغة متفرعة، فقد رأينا فيما سبق أن معظم الخصائص قد بقيت في اللغة العربية، في حين أنها تغيرت في اللغات السامية، أو اختفت، وأضرب مثالاً على ذلك – إضافة إلى ما سبق – ظاهرة المثنى، فهو واسع الاستعمال في العربية، مقارنة مع استعماله في اللغات السامية، "ويدل هذا على حرص العربية على استثمار ما وسعت به على نفسها من الناحية الشكلية"[45]. وهذه الظاهرة قليلة في اللغات السامية كالسريانية والعبرية والحبشية، فالعبرية تستخدمه في التعبير عن أعضاء الجسم المزدوجة كالأذنين، وفي الأدوات التي تعتمد على شيئين في إقامتها كالمقص، وفي الأعداد الدالة على المثنى[46]. ويفسر المستشرقون بذرة المثنى في اللغات السامية بالتطور النازل؛ أي أنه كان كثير الاستعمال، ثم قل استعماله، فلم يبق منه إلا أمثلة قليلة، وقد يفسر ذلك بالتطور الصاعد؛ أي أنه كان قليل الاستعمال، ثم أخذ يتزايد، فهو في العبرية أكثر منه في الآرامية والسريانية[47]. وإذا أخذنا بالتفسير الأول (التطور النازل) فهذه اللغات كانت تستعمل المثنى مثل العربية، ولما هاجر أصحابها أخذت تتضاءل تدريجيا، وأما اللغة الأصل؛ أي اللغة العربية – فقد ظلت محافظة على خصائصها وظواهرها، وهذا دليل على أنها الأصل وغيرها الفرع.

ويؤيد ما ذهبنا إليه (أن اللغة العربية هي اللغة الأم للغات السامية) ما تمتاز به هذه اللغات من أوصاف لا تختلف عن أوصاف العربية الأصلية، فهذه اللغات يوجد فيما بينها تقارب واضح[48]، تقترب في مجموعها من اللغة العربية الأم، فهي جميعا تتقارب في الحروف وأنواعها ودلالاتها، وفي الأسماء والصيغ الاشتقاقية والصرفية، فالساميات تتميز بأنها ثلاثية الأحرف، ومعظم الاشتقاق فيها يحدث بتغيير الحركات وعليه يتوقف نوع الدلالة، كذلك في الصيغ الفعلية ودلالاتها الزمنية وفي تركيب الجمل، وما إلى ذلك من تشابهات بينة، وصلات واضحة المعالم، أدت إلى التسليم بأن هذه العائلة السامية، إنما هي أغصان تفرعت عن أصل واحد، وهي اللغة العربية كما بينا.

وفيما يأتي نذكر قائمة من الألفاظ لبعض اللغات السامية المتعددة، لنرى مدى قربها من العربية الأم لفظاً ومعنى، لنثبت صحة ما ذهبنا إليه (أن العربية هي أصل لهذه اللغات السامية جميعا)[49].

عربي	لفظ آشوري بابلي	لفظ عبري	لفظ آرامي	لفظ لغات جنوب الجزيرة والحبشة
أبٌ	أبو	أب	أبا	أب
ابنٌ	بنُو	بن	برَا	بن
أرْبَعٌ	أرْبَعُو	أرْبع	أرْبَع	أرْبَع
ثَلاثٌ	شَلاشو	شَلوش	ثلاثْ	شَلاس
جَمَلٌ	جَملو	جَمَل	جَمْلا	جَمل
حَبْلٌ	ابْلُو	حبِل	حَبلا	حَبْل
حَفَرَ	حفَر	حفَر	حفْرَ	حَفَر
خَبَلَ	خبل	خَبَل	خبْلَ	خَبَل
خِنْزيرٌ	خُمْسرُ	حَزير	حْزيرا	خَنْزير
دَمٌ	دَمُو	دَمْ	دْمَا	دَم
ذَكَرٌ	زَكَرُو	زكَر	زَكْرَا	ذَكَر
رَأسٌ	رشُو	روش	ريشَا	رَاس
رَكِبَ	ركب	رَكَب	رْكَب	رَكِب
زَرْعٌ	زرُو	زرَع	زَرْعَا	زَرْع
سَبْعٌ	سبُو	شبَعْ	شْبَعْ	شَبْعُو
شَمسٌ	شَمْشُو	شِمْش	شمْشَا	شَمْس
صَرَخَ	صرخ	صرَخ	صْرَخْ	صرخ
ظَفْر	صُبْرُو	صبِرن	طفْرَا	ظفر
عشر	عشْرو	عِسِر	عْسَرْ	عَشْرُ
عَقْرب	عَقْرَبو	عَقْرَب	عقربا	عَقْرَب
فَمٌ	بُو	به	بُوما	أفْ
قَرْن	قَرْنُو	قِرِن	قَرْنَا	قَرْن
كَبِدٌ	كبِدُو	كَابد	كَبْدَا	كَبْد
لسَان	لشَانو	لَشُون	لشَنَا	لسَان
مَاءٌ	مُو	مايم	مَايَا	مَايْ
نَمِرٌ	نِمْرُو	نَمِر	نمْرَا	نَمر
وَدَ يَوَدَ	وَد	يَدَد	يد	وُد
وَرَق	وَرَقُو	يَرَق	يَرْقا	وَرْق
وَلَدَ يَلِدُ	وُلِد	يَلَدَ يلد	إيلدْ نيلد	وَلَد يَلَد
يَدُ	إدُو	يَدْ	إيدَا	أدْ

عربي	لفظ آشوري بابلي	لفظ عبري	لفظ آرامي	لفظ لغات جنوب الجزيرة والحبشة
يمين	إمْنُو	يَمين	يمينا	يَمَنْ

وبعد، فإن العرب قديماً شغلتهم مسألة اللغة السامية، بل نجدهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك؛ إذ ذهبوا إلى البحث في لغة آدم نفسه التي تفرعت منها كل لغات البشر، وأن هذه اللغة هي اللغة العربية. وفي هذا الإطار يذكر السيوطي: "كان اللسان الأول الذي نزل به آدم من الجنة عربيا، إلى أن بَعُدَ العهد وطال، فحُرف وصار سريانيا، وهو يشاكل اللسان العربي إلا أنه محرف"[50].

أما المحدثون العرب الذين يرون أن اللغة العربية هي اللغة السامية الأم، فإنهم يرجحون أن تكون هذه اللغة العربية، هي لغة العرب الآرامية المتفرعة إلى قبائل عاد، وثمود، وطسم، وجديس، وعماليق، كما يجوز أن تكون لغة جماعة عربية أخرى كانت أقدم في العهد من العربية الآرامية وأسبق منها إلى الوجود، فهي إما العربية الآرامية، وإما هي أم لها، نشأت نشأة اللهجات التي تفرعت عنها لهجات العرب القحطانية والحميرية والمعينية والسبئية، ثم اللهجات العدنانية، وما تفرع عنها من لهجة مُضر القرشية المعروفة الآن بالفصحى وبلغة القرآن[51].

ويرى فيليبي في دراساته المسهبة لأحوال جزيرة العرب "أن اللغة العربية التي يعترف الخبراء بكونها أقرب من جميع اللغات السامية إلى اللغة الأم الأصلية التي اشتقت منها جميع هذه اللغات، هي على أغلب الاحتمالات أقدم لغة في العالم ما زالت حية حتى وقتنا هذا"[52].

وبعد، فإنه إذا صح ما ذهب إليه السيوطي أن لغة آدم نفسه هي العربية، وما ذهب إليه فيليبي أن العربية أقدم لغة ما زالت حية؛ فإنه من باب أولى أن نستدل على ما ورد من هذه الأقوال وغيرها مما ذكرنا سابقا، على أن اللغة العربية هي أصل اللغات السامية.

الهوامش:

1- صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، ص47 – 48، بروكلمان، فقه اللغات السامية، ص11، خالد إسماعيل، فقه اللغات العاربة المقارن: مسائل وآراء، ص7 –9.

2- الكاصدي، فقه اللغة العربية، استيتيه، اللسانيات، المجال والوظيفة والمنهج، ص578.

3- صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، ص49 – 51.

4- خالد إسماعيل، فقه اللغات العاربة المقارن، ص39.

5- صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، ص52 – 59.

6- محمود أحمد حسن المراغي، مدخل إلى اللغة العبرية، ص7.

7- انظر السابق، وربحي كمال، دروس في اللغة العبرية، ص18، وانظر: خالد إسماعيل، فقه اللغات العاربة المقارن، ص20.

8- محمود المراغي، مدخل إلى اللغة العبرية، ص41، وربحي كمال، دروس في اللغة العبرية، ص16.

9- محمود المراغي، مدخل إلى اللغة العبرية، ص42، وانظر ولفنسون تاريخ اللغات السامية، ص5.

10- حسن ظاظا، الساميون ولغاتهم، ص15.

11- ولفنسون، ص5.

12- السابق، ص5.

13- بروكلمان، فقه اللغات السامية، ص12. وعلي عبد الواحد وافي، فقه اللغة، ص11، ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، ص5.

14- المراغي، مدخل إلى اللغة العبرية، ص43، حسن ظاظا، الساميون ولغاتهم، ربحي كمال، دروس في اللغة العبرية، ص17.

15- حسن ظاظا، الساميون ولغاتهم، ص17 – 18، والمراغي، مدخل إلى اللغة العبرية، ص43 – 44.

16- ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، ص4، علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة، ص10، إميل بديع، فقه اللغة العربية وخصائصها، ص11.

17- ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، ص4 – 5.

18- بروكلمان، فقه اللغات السامية، ص12، علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة، ص11. ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، ص5.

19- ربحي كمال، دروس في اللغة العبرية، ص18، وخالد إسماعيل، فقه اللغات العاربة المقارن، ص12، وحسن ظاظا، الساميون ولغاتهم، ص15، وجواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 298/1.

20- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 238/1، وحسن ظاظا، الساميون ولغاتهم، ص15، والمراغي، مدخل إلى اللغة العبرية، ص45.

21- بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، 41/1.

22- ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، ص5-6.

23- فيلبي، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص9-10.

24- محمد رشيد ناصر، لغة آدم عطاء أبدي لبني آدم، ص62، والمراغي، مدخل إلى اللغة العبرية، ص50.

25- المراغي، مدخل إلى اللغة العبرية، ص57 – 58، وانظر: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 97/1 – 98، وخالد إسماعيل، فقه اللغات العاربة المقارن، ص12 – 13.

26- ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، ص7.

27- السابق، ص7.

28- السابق، ص6- 7، ربحي كمال، دروس في اللغة العبرية، ص20، إميل بديع، فقه اللغة العربية وخصائصها، ص111.

29- استيتيه، اللسانيات، ص587 – 588.

30- السابق، ص588 (التثنية 5:36).

31- ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، ص164.

32- السابق، ص164.

33- السابق، ص165.

34- استيتيه، اللسانيات، ص589.

35- السابق، ص590.

36- فائز فارس، اللغة، ص17 – 21.

37- علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة، ص15.

38- خالد إسماعيل، فقه اللغات العاربة المقارن، ص15.

39- السابق، ص16.

40- السابق، ص16-19.

41- السابق، ص19.

42- ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، ص7، علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة، ص15.

43- ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، ص7.

44- ربحي كمال، دروس في اللغة العبرية، ص21.

45- إسماعيل عمايرة، خصائص العربية في الأسماء والأفعال، ص63.

46- السابق، ص63.

47- السابق، ص64.

48- المراغي، مدخل إلى اللغة العبرية، ص60، ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، ص14-17.

49- ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، ص283-294.

50- السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ص20/1.

51- علي العناني، الأساس، ص39.

52- أحمد نسيم سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ص281 – 282.

المصادر والمراجع:

1- أحمد نسيم سوسة، العرب واليهود في التاريخ، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1988م.

2- إسماعيل عمايرة، خصائص العربية في الأفعال والأسماء، دراسة لغوية مقارنة، دار الملاحي، إربد، الأردن، ط1، 1408هـ/1987م.

3- إميل بديع، فقه اللغة العربية وخصائصها، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1982م.

4- بروكلمان (كارل)، فقه اللغات السامية، ترجمة: د. رمضان عبد التواب، جامعة الرياض- المملكة العربية السعودية، 1397هـ/1977م.

5- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، دار العلم للملايين، 1969م.

6- حسن ظاظا، الساميون ولغاتهم، دار المعارف، مصر 1971م.

7- خالد إسماعيل، فقه اللغات العاربة المقارن، مسائل وآراء، إربد، مكتب البروج، 1412هـ/2000م.

8- ربحي كمال، دروس في اللغة العبرية، مطبعة قمحة إخوان، دمشق، ط5، 2001م.

9- الزيدي (كاصد)، فقة اللغة العربية، جامعة الموصل، 1407هـ/1987م.

10- سمير استيتيه، اللسانيات، المجال والوظيفة والمنهج، عالم الكتب الحديث، إربد، ط1، 1425هـ/2005م.

11- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين، دار الجيل، بيروت، لبنان، بلا تاريخ.

12- صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، ط9، 1981.

13- على عبد الواحد وافي، فقه اللغة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة، ط8.

14- علي العناني، الأساس، دار المعارف، القاهرة، ط1.

15- فائز فارس، اللغة العبرية، مؤسسة الرسالة، بيروت، دار الأمل، إربد، دار البشير، عمان، ط1، 1987م.

16- فيلبي، تاريخ العرب قبل الإسلام، مكتبة مدبولي، القاهرة 1987م.

17- محمد رشيد ناصر، لغة آدم عطاء أبدي لبني آدم، جَروس برس طرابلس، لبنان، ط1، 1995م.

18- محمود أحمد المراغي، مدخل إلى اللغة العبرية، دار العلوم العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1990م.

19- ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، دار القلم، بيروت، لبنان، ط1، 1980م.